المبحث الخامس:

الإصلاح الاقتصادي وأوجه الإنفاق

كانت الدولة في عهد صلاح الدين تعيش في سعة من الرزق وبحبوحة من العيش، ذلك لأن مواردها كثيرة، ومنابع الأرزاق فيها متنوعة، ويمكن أن نحصر هذه الموارد.

- وضع يده على كنوز الفاطميين الكثيرة بعد أن أصبحت مصر تحت سلطانه.
- موارد الجزية التي كانت تأتيه من غير المسلمين.
- موارد للفدية التي كانت تصله من الأسرى.
- موارد الغنائم التي كان يحصل عليها أثناء الحروب.
- موارد الخراج الذي كان يؤخذ من أصحاب الأراضي التي فتحت صلحاً إلى غير ذلك من هذه الموارد المشروعة ومنابع الثروة المسنونة ولم يكن صلاح الدين من السلاطين الذين ينفقون الأموال في غير وجهها ويضعونها في غير موضعها، وإنما كان ينفقها في سبيل الله وإقامة الحصون، وتشييد القلاع، والإصلاح العمراني وفي كل ما يعود على الدولة بالنفع [1].

أولاً: اهتمامه بالزراعة والتجارة:

لأجل أن يجنب صلاح الدين البلاد ويلات المجاعات التي تسببها الحروب اعتنى بالزراعة ووسائل الري اعتناء بالغاً، لتنبت الأرض أطيب الثمرات، وتنتج من كل زوج بهيج، وقد تعاونت مصر والشام في تبادل المحاصيل الزراعية، وتعزيز المصالح الاقتصادية، وتموين الجيوش بالثروات اللازمة، ووقف الإقليمان جنباً إلى جنب أمام اعتداءات الفرنج الغادرة، وتزويد الجيش الإسلامي بكل ما يلزم من مواد غذائية وعتاد، كما عنى صلاح الدين بالتجارة عناية كبيرة، فكانت مصر في عهده حلقة الاتصال بين الشرق والغرب، وقد انتعشت مدن أوروبية كثيرة بسبب هذه التجارة مثل مدينة "البندقية وبيزا" الإيطاليتين، وقد سمح البنادقة فيما بعد بتأسيس سوق تجارية في الإسكندرية كان يطلق عليه "سوق الأيك" وأولى صلاح الدين الأسواق التجارية كل اعتنائه واهتمامه حتى يزدهر الاقتصاد ويزداد الإنتاج في دولته، فكثر عددها في مصر والشام، واهتم بإصلاحاتها وتوسيعها ومر الرحالة "جبير" ببعض هذه الأسواق في رحلته أيام صلاح الدين سنة 578هـ فسجل إعجابه بنظامها فقال في معرض الحديث عن مدينة حلب: أما

(1) صلاح الدين الأيوبي، عبدالله علوان ص 175.

البلد فموضوعه ضخم جداً، جميل التركيب، بديع الحسن، واسع الأسواق كبيرها متصلة بالانتظام، مستطيلة، تخرج من سماط [1] صنعة إلى سماط صنعة أخرى إلى أن تفرغ من جميع الصناعات المدنية، وكلها مسقف الخشب، فسكانها في ظلال وارفة، فكل سوق منها تقيد الأبصار وتستوقف المستوفز تعجباً وأكثر حوانيتها من الخشب البديع الصنعة [2]، كما وصف "ناصر خسرو" في كتابه "سفرنامه" مدينة طرابلس الشام في عهد صلاح الدين فقال: إنها بلد جميل، حوله المزارع والبساتين، وكثير من قصب السكر، وأشجار النارنج والموز والليمون وبها مغازل ذات أربع طبقات أو خمس أو ست، وشوارعها وأسواقها جميلة نظيفة، حتى لتظن أن كل سوق قصر مزين، وفي وسط المدينة جامع عظيم، نظيف جميل النقش حصين، وفي ساحته قبة كبيرة تحتها حوض من الرخام في وسطه فوارة من النحاس الأصفر، وفي السوق مشرعة[3]، ذات خمسة صنابير يخرج منها ماء كثير، يأخذ منه الناس حاجتهم [4].

ثانياً: اهتمامه بالصناعات:

اهتم صلاح الدين بصناعة السلاح والمنسوجات والأقمشة والملابس الحريرية المزركشة وسروج الخيل المطهمة، وصناعة الزجاج، كما انتشرت في عهده صناعة الخزف والسفن والأساطيل إلى غير ذلك مما يزهر الاقتصاد، ويضاعف الإنتاج ويمكن للدولة أسباب القوة[5]، ولقد كان أصحاب الحرف والصناع في عهد الدولة الأيوبية من أكثر الناس وفاء لتقاليدهم الموروثة فقد بقيت طوائف العمال والحرف تسير على نفس النظم والطرق الصناعية التي كان مستعملة في العهود التي سبقتها وكان الصنّاع ينتظمون في نقابات تحمي حقوقهم وتشرف على تأدية واجباتهم على الوجه الأكمل بحيث كان لها نظمها وتقاليدها التي يحترمها الجميع وتؤيدها الدولة بنفوذها [6]، وكان من تقاليد نقابات وطوائف الحرف والصناع الحفاظ على أسرار تلك الحرف وقصرها على أفرادها وأسرهم، ولعل هذا يفسر لنا ما شاع من تخصص بعض الأسر في حرفة واحدة يتوارثها الأبناء عن الآباء، فضلاً عن صعوبة دخول الغرباء على الطائفة في

---

(1) السماط الجانب.
(2) صلاح الدين الأيوبي ص 176.
(3) المصدر نفسه ص 177، مشرعة: مورد الشاربة للماء.
(4) المصدر نفسه ص 177.
(5) الفنون الإسلامية للعصر الأيوبي (54/1).
(6) المصدر نفسه (55/1).

صفوفها [1]، ومن أشهر مراكز الصناعة في العصر الأيوبي.

1- مدينة القاهرة:

لم يكن القصد من بناء مدينة القاهرة أن تكون عاصمة للدولة، وبيتاً لكل سكان مصر، بل قصد أن تكون سكناً خاصاً للخليفة وحرمه، وجنده، وخواصه بعيداً عن مصر الفسطاط وامتدادها وقد أصبحت القاهرة بعد قرن واحد على الأكثر مركزاً عمرانياً هاماً سرعان ما أسست فيه حياة مجتمع ما بكل طبقاته، ومتطلباته، فانتشرت في أرجائه أنشطة حرفية وصناعية مختلفة راجت رواجاً كبيراً خلال العصر الأيوبي [2].

ومن الواضح أن أسواق القاهرة قد ازدهرت في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي حيث تعرضت المدينة لمتغيرات اقتصادية واجتماعية ترتب عنها زيادة في الطلب على منتجات الأسواق بشكل عام، كما أن هذه التطورات هي التي أوجدت أغلب المتغيرات التي شهدتها أسواق المدينة في تلك الأثناء ومن أبرز هذه المتغيرات ظهور التخصص في الأسواق أي أن يكون لكل نوع من أنواع السلع سوقاً متخصصة بها وهو إجراء تنظيمي بدأ باتخاذه منذ عهد صلاح الدين الأيوبي حيث يلاحظ أن غالبية الأسواق الرئيسية التي ظهرت في العصر الأيوبي كانت متخصصة ببيع فئة واحدة من السلع والبضائع وهذه ظاهرة لم تكن معروفة قبل العصر الأيوبي؛ ومنها أسواق تباع فيها الثياب المخيطة والفرش ونحو ذلك كما أن سوق الجملون الكبير قد أنشئ في عهد صلاح الدين وكان هذا السوق مخصصاً ببيع الأقمشة الحريرية، كما اختصت بعض الأسواق ببيع جهاز العروس، وأساورهن، وأيضاً ظهر سوق بين القصرين الذي كان يوجد به سوقاً للسلاح، والقسي، والنشاب، والزرديات وغير ذلك، مما يحتاجه الجند من أنواع الأسلحة المختلفة كما ظهرت أسواق أخرى مثل الشرابشيين والخوائصيين حيث كانت تباع في هذين السوقين ملابس الأجناد وأزيائهم علاوة على الخلع التي يلبسها السلطان للأمراء والوزراء والقضاة، وقد حدث انتقال بعض الأسواق والصناعات من الفسطاط إلى القاهرة وكانت هذه الظاهرة طبيعية لإباحة القاهرة لسكني العامة والجمهور في عهد صلاح الدين حيث سيجد العديد من التجار والصناع في ذلك فرصة للانتقال للقاهرة لممارسة نشاطهم بالقرب من رجال الدولة وأمرائها بعد تخلص الدولة من الجهاز الصناعي الذي كان قائماً في الحاصلات " في العصر الفاطمي وأدى إلى تحول عدد كبير من هؤلاء الصناع إلى الأسواق المختلفة للعمل فيها مما أسهم على وجه

---

(1) الفنون الإسلامية للعصر الأيوبي (55/1).

(2) المصدر نفسه (139/2).

التأكيد في زيادة النشاط الصناعي وتطوره في القاهرة والذي ساهم بدوره في ازدهار التجارة القائمة على الصناعات في عهد الناصر صلاح الدين الأيوبي [1].

2- مدينة الفسطاط:

يمكن القول أن الحريق الذي قام به شاور عام 564هـ كاد أن يأتي على الفسطاط نهائياً لولا أن تداركتها عناية بني أيوب، فمنذ أن ولى أسد الدين شيركوه الوزارة أظهر الحرص على إعادة عمارتها، ثم واصل المهمة من بعده ابن أخيه صلاح الدين الذي وجه اهتماماً كبيراً نحو الفسطاط فقام باصلاح جوامعها ومنشآتها الرئيسية وبنى بها المدارس وتوج أعماله هذه بضمها مع القاهرة في سور واحد يضمن من خلاله توفير الحماية لهما وترتب على هذا الاهتمام أن أخذ العمران يعود إلى المدينة بشكل تدريجي، وكانت فرصة البناء بالفسطاط مواتية منذ عهد الناصر صلاح الدين حيث جرى إنشاء المباني والأسواق والمصانع في هذه المنطقة [2]. وسميت مصانع الفسطاط بـ "المسابك" فقيل "مسابك النحاس" "ومسابك الفولاذ" ونحو ذلك، والذي لاشك فيه أن المسابك كانت قائمة بالفسطاط وتنتج الخامات المعدنية المصهورة والمسبوكة ما كان صناع المعادن في مصر في حاجة إليه لعمل العديد من الأسلحة الآلات الحربية، علاوة على الأدوات المنزلية، والتحف المختلفة [3].

تنيس [4]:

تعتبر تنيس من أهم المراكز الصناعية للمنسوجات في العصر الأيوبي فقد أطنب كثير من المؤرخين والرحالة في صناعة منسوجاتها [5]، فكان ينسج مثل هذا القصب في جهة أخرى غير تنيس، ومن الجدير بالذكر أن مدينة تنيس بقيت عامرة بنشاط أهلها الصناعي والتجاري إلى حين خربها الملك الكامل محمد بن أيوب وهدم سورها وبيوتها في سنة 624هـ/1226م [6].

ومن المدن التي اشتهر، كمراكز صناعية في العهد الأيوبي، مدينة دمياط، وأخميم،

---

(1) عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين ص 227 - 333.
(2) المصدر نفسه ص 249 - 252.
(3) الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي (143/2).
(4) من أجمل المدن وهي جزيرة قريبة من البحر في مصر بين الفرما ودمياط.
(5) الفنون الإسلامية في العصر الأيوبي (145/21).
(6) المصدر نفسه (146/2).

والإسكندرية، وجزيرة الروضة، ومدينة دمشق ومدينة حلب [1]، وغيرها.

ثالثاً: إلغاء المكوس والاكتفاء بالموارد الشرعية:

لم يكن غريباً ألا يوجد في خزانة صلاح الدين بعد وفاته سوى 46 درهماً فضة ودیناراً ذهبياً واحداً؛ فقد كانت واردات دولته ضخمة، كما كانت نفقاته الحربية ضخمة، وكلما كانت البلاد التي تقع في يده تزداد، كانت وارداته منها ونفقاته من أجلها تزداد بصورة مطردة، وكانت قاعدته الدائمة.

1- إلغاء المكوس والضرائب غير الشرعية في جميع البلاد التي فتح.

2- الاكتفاء بالموارد الشرعية من زكاة وجزية وخراج وغنائم وعشور التجارة.

وكانت واردات مصر هي مصدره الأول، لأنه اعتبرها مملكته، ولذلك ألغى ما كان يأخذ فيها من رسوم الحج على المغاربة، وألغى المكوس على تجار اليمن، والضرائب المماثلة في دمشق حين فتحها، وفي حلب وسنجار والرقة، وتظهر سياسته المالية في المنشور الذي نشره عند إسقاط مكوس الرقة؛ إن أشقى الأمراء من سمَّن كيسه وأهزل الخلق، وأبعدهم عن الحق من أخذ الباطل من الناس وسمّاه الحق، ومن ترك لله شيئاً عُوِّضه، ومن أقرض الله قرضاً حسناً وفاه، ولما انتهى أمرنا إلى فتح الرقة أشرفنا على سمن يؤكل، وظلم مما أمر الله به أن يقطع، فأوجبنا على أنفسنا وعلى كافة الولاة من قبلنا أن يضعوا هذه الرسوم بأسرها... وقد أمرنا أن تسد هذه الأبواب، وتبطل ويعفى خبر هذه الضرائب في الدواوين، ويسامح بها جميع الأغنياء والمساكين مسامحة مستمرة الأيام [2].

وهكذا كان إسقاط الضرائب التي كان يحصلها الصليبيون من الصلت والبلقاء وجبل عوف والسواد والجولان، وكان الفرنج يأخذون نصف حاصلها وقد أعاد صلاح الدين فريضة الزكاة - التي كان الفاطميون قد ألغوها - إيذاناً بعودة مذهب أهل السنة، وجعلها البديل على المكوس والرسوم غير الشرعية، واهتم بجمعها وأقام لها ديواناً تسلمُّه "متولى الزكاة" وكانت حصيلته زهيدة [3] وكانت الزكاة تؤخذ على الذهب والفضة وعروض التجارة والماشية والمزروعات، مع إعفاء المواد الغذائية كالسمسم وبذور الكتان والزيتون والخضار [4].

---

(1) المصدر نفسه (146/2 - 148).
(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 388.
(3) المصدر نفسه ص 388.
(4) المصدر نفسه ص 388.

وكانت ضريبة الخراج تجبي بنظامها وأوقاتها في مصر، فلما اقتضى الأمر تحويل السنة الشمسية القطبية إلى الهجرية سنة 567هـ لأن موعد الجباية صار يسبق موعد الإنتاج عدّل صلاح الدين ذلك، وأما المناطق الأخرى في الشام والجزيرة، فكان الخراج يؤخذ على مساحة الأرض بالفدان، وضريبة القمح والشعير أردبين ونصف للفدان الواحد، ويجمع المنتفعون الضريبة ثم يسددونها لديوان السلطان، وكان على الفول والحمص مثل ذلك، وثَمَّ ضرائب نقدية على بعض الحاصلات كالكروم وثمار الشجر، وتتراوح بين دينار وخمسة على الفدان، وفي السنة الثالثة لا تزيد على ثلاثة دنانير، ويدفع أهل الذمة الجزية ويعفى منها الصبية والنساء، والرهبان، وتسمى ضريبة الجوالي (ج: جالية) وتختلف حسب أحوال الشخص، من دينار واحد إلى (4.5) دينار، إضافة إلى درهمين ونصف الدرهم على الجميع كل سنة، ولما كانت المعادن والأخشاب لازمة لصنع الأسلحة، فقد منع صلاح الدين أن يكون لأحد دخل فيها، وشدد على احتكار الدولة لها، فهو في حالة حرب مع الفرنجة، وعقوبة من يهرب بشيء منها كبيرة [1]، وكانت معظم واردات الدولة تنفق على الحرب، والحصون، والأسوار والقلاع، والمدارس والمساجد والأربطة، وخانات في الطرق وزوايا، ورواتب للعاملين في الدولة [2]،... إلخ.

رابعاً: المستشفيات في عهد صلاح الدين:

لم يكن في عهد صلاح الدين مدارس خاصة لدراسة الطب، بل كان هذا النوع من الاختصاص يُدَّرس في المستشفيات، ثم ينساب الطالب بعد المحاضرة بين المرضى ليعاين الأمراض ويعالج المرض [3] وقد قام صلاح الدين ببناء مجموعة من المستشفيات في عصره منها:

أ- المستشفى الناصري في القاهرة:

بنى صلاح الدين المستشفى الناصري بالقاهرة، فقد اختار أحد قصوره الفخمة وحوله، إلى مستشفى ضخم كبير، وانتقى في اختياره ذاك قصراً بعيداً عن الضوضاء [4]، يقول الدكتور أحمد عيسى: البيمارستان الناصري أو الصلاحي أو بيمارستان صلاح الدين: لما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية سنة 567هـ/1171م

(1) المصدر نفسه ص 389.
(2) صلاح الدين الفارس المجاهد والملك الزاهد ص 389.
(3) تاريخ الأيوبيين في مصر وبلاد الشام ص 214.
(4) المستشفيات الإسلامية، عبدالله، عبدالرزاق ص 236.

واستولى على القصر، قصر الفاطميين كان في القصر قاعة بناها العزيز بالله في سنة 384هـ/994م، فجعلها السلطان صلاح الدين بيمارستاناً وهو البيمارستان العتيق داخل القصر [1]، قال القاضي الفاضل في متجددات سنة 577هـ /1181م: أمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بفتح مارستان للمرضى والضعفاء فاختير مكاناً بالقصر، وأفرد برسم من جملة الرباع الديوانية، مشاهرة مبلغها مائتا دينار وغلاّت جهتها الفيوم واستخدم له أطباء وكحّالين وجرائحيين وشارفا وعاملاً وخدّاماً ووجد الناس به رفقاً وبه نفعاً [2].

وكان المستشفى الناصري مؤثثاً بأثاث جيد ممتاز وهو من القصور الرائعة وفيه كل ما يحتاجه لمداواته وراحته[3] وقد وصف ابن جبير الرحالة المستشفى الذين بناه صلاح الدين في القاهرة قال: ومما شاهدناه من مفاخر هذا السلطان المارستان الذي بمدينة القاهرة وهو قصر من القصور الرائعة حسناً واتساعاً أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً، وعين قيماً من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكّنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها، ووضعت في مقاصير ذلك القصر أسّرة يتخذها المرض بكرة وعشية فيقابلون من الأغذية والأشربة بما يليق بهم، وبإزاء هذا الموضع موضع مقتطع للنساء المرضى، ولهن أيضاً من يكفلهن، ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع الفناء فيه مقاصير عليها شبابيك من الحديد اتخذت مجالس للمجانين، ولهم أيضاً من يتفقد كل يوم من أحوالهم ويقابلهم بما يصلح لها، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ويؤكد في الاعتناء والمثابرة عليها غاية التأكيد [4].

وقال علي مبارك باشا: لما تولى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب السلطنة وفرق أماكن قصر الخلافة على أمرائه ليسكنوا فيها، جعل موضعاً منها مارستاناً، وهو المارستان المشهور بالعتيق وجعل بابه من حارة ملوخية، وهي حارة قائد القواد قديماً وموضعه الآن الدار المعروفة بدار غمري الحصري مع ما جاورها من الدور كما وجدنا ذلك في حجج الأملاك وهو بآخر الحارة من جهة بابها الصغير الذي من جهة قصر الشوك ويدخل منه إلى البيمارستان العتيق [5]. وأما عن الأطباء الذين عملوا في

(1) تاريخ البيمارستانات في الإسلام ص 76، 77.
(2) المستشفيات الإسلامية ص 236.
(3) المصدر نفسه ص 236.
(4) المستشفيات الإسلامية ص 237.
(5) المصدر نفسه ص 337.

البيمارستان الناصري، فمن أشهرهم، رضي الدين الرحبي، وإبراهيم ابن الرئيس ميمون، ابن أبي أصيبعة، والشيخ السديد بن أبي البيان، والقاضي نفيس الدين بن الزبير [1].

ب- بيمارستان الإسكندرية:

بناه صلاح الدين عندما دخل الإسكندرية سنة 577هـ، وشرع في قراءة الموطأ على الشيخ أبو الطاهر بن أبي عوف، وأنشأ بها داراً للمغاربة ومدرسة موقوفة على أخيه توران شاه [2].

ج- البيمارستان الصلاحي بالقدس:

أقام هذا المستشفى صلاح الدين الأيوبي وذلك عام 583هـ الموافق 1187م، وذلك بعد أن حرّر القدس من الصليبيين وطردهم منها [3]. وتقول الموسوعة الفلسطينية عن البيمارستان الصلاحي في القدس: هو من مآثر السلطان صلاح الدين الأيوبي [4] وقد وقفه صلاح الدين وعين له كبار الأطباء، ووقّف عليه أوقافاً كثيرة، وأصبح ذلك البيمارستان من أشهر البيمارستان في تلك الفترة وكان علم الطب يدّرس فيه إلى جانب ممارسته عملياً[5].

د- بيمارستان عكا:

في سنة 583هـ بعد أن فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس واستنفذه من أيدي الصليبيين انصرف إلى دمشق واجتاز في طريقه إلى عكا ولما وصل إليها نزل بقلعتها ووكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش ووقف دار الاشبتار نصفين على الفقراء والفقهاء، وجعل دار الأسقف مارستاناً ووقف على ذلك كله أوقافاً دارّة وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً [6].

وبغض النظر عن سعة البيمارستان فقد يختلف من بيمارستان إلى آخر ومقدار

---

(1) المصدر نفسه ص 338.
(2) المصدر نفسه ص 339.
(3) المستشفيات الإسلامية ص 250.
(4) المصدر نفسه ص 251.
(5) المصدر نفسه ص 253.
(6) المصدر نفسه ص 255.

الزخرفة ومساحة الحدائق الملحقة وعدد النوافير الذي قد يختلف أيضاً، فإن البيمارستانات كان لها مخطط أساسي يحتوي على:

أ – أقسام خاصة بالرجال وأخرى خاصة بالنساء مفصولة عن الأولى.

ب – عنابر - (قاعات - مرضى حسب التخصصات فهناك عنابر مخصصة للمرضى المصابين بالحمى والأخرى للأمراض العقلية، والنفسية وغيرها لمرضى الرمد وهكذا [1].

ج – عنابر مفصولة للناقهين من المرضى إلى أن يشفوا.

د – للأطباء للكشف على المرضى غير المنومين.

- غرف لرئيس الأطباء وبقية الإداريين.

- قاعة محاضرات يلقي فيها رئيس الأطباء دروسه ويجتمع بها مع تلاميذه.

- مكتبة.

- مطبخ لطبخ الأغذية الصحية حيث كان الغذاء أحد طرق العلاج وكذلك لطبخ الأشربة وغيرها من المواد العلاجية.

- صيدلية لتحضير الأدوية.

- مخازن.

- قاعة لغسل الموتى.

- مصلى (مسجد).

- مراحيض وحمامات.

بالإضافة إلى الباحات والأفنية والحدائق التي تحتوي على الأشجار والشمومات والمأكولات، وكثير من هذه البيمارستانات كانت تحتوي على سكن للعاملين فيها [2].

خامساً: خانقاوات الصوفية:

لفظ خانقاه هو لفظ فارسي معناه في الأصل المائدة أو المكان الذي يأكل فيه الملك، ثم أطلق بعد ذلك على الخوانق أو الخانقاوات أو الدور التي قام على إنشائها الملوك والأمراء الراغبون في عمل القرب والمبرات لأغراض كثيرة أهمها إيواء الغرباء من

(1) تنظيم صنعة الطب خلال الحضارة العربية الإسلامية ص 522.

(2) تنظيم صناعة الطب خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية ص 523.

المسلمين الوافدين إلى ديارهم والقيام بمعيشتهم وتثقيفهم، ومع أن الصلوات الخمس المفروضة كانت تؤدي في إيوان خاص للصلاة بهذه الخانقاوات إلا أن صلاة الجمعة لم تكن تقام فيها [1]، والخانقاه وهي بيت الصوفية كانت أشبه ما تكون بالمدرسة، لأنها كانت فعلاً مدرسة العامة ممن نذروا أنفسهم لحياة الزهد والتقشف، سواء كانوا من أبناء الشعب أو من أرباب الحرف والصناعات الذين عملوا على حمل مبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الطرق والأسواق فتشابهت الخانقاه بذلك مع المدرسة من حيث الشكل والوظيفة [2].

والخلاصة أن الخوانك في الإسلام كانت عبارة عن دور للعلم والعبادة قامت بأدوار دينيية اجتماعية وثقافية هامة في حياة المجتمع الإسلامي منذ نشأتها، فقد كانت أولاً معاهد للمذاهب الفقهية والحديث الأخرى ممن لم يكن لهم مساوئ، وكانت ثالثاً مراكز إشعاع ثقافي بما احتوته بعض مكتباتها من الكتب المصنفة في كثير من العلوم والمعارف[3].

وكانت وظائف الخانقاة كثيرة ومتعددة، منها شيخ الخانقاه إمامها وناظر وقفها ومدرسو المذاهب ومعيدوهم والكحال والجرائحي والطبائعي وخازن الكتب وكاتب الغيبة والشاهد والمؤذن والمزملاتي، ومشرف الحمام، ومشرف المطبخ والطباخ وخادم الشيخ وخادم الربعات الشريفة والبواب والفراش وسواق الساقية والوقاد ونحوهم، وإن دل هذا الكم من الوظائف على شيء، فإنما يدل على حجم ما كان في هذه الخانقاوات من وظائف متنوعة كان كل واحد من أربابها يتقاضى نظير عمله بالخانقاه أجراً نقدياً راعى فيه الوقف أن يتناسب مع ثرائه المالي ومقامه الاجتماعي، علاوة على ما كانوا جميعاً يشتركون فيه من أجر عيني انحصر في المأكل من الخضراوات واللحوم والأرز واللبن والعسل والحلوى ونحوها وفي الملبس والصابون وغير ذلك من الأرزاق الوافرة التي كانت توزع عليهم [4].

وقد سار صلاح الدين على نهج أستاذه نور الدين فاهتم بهذه المؤسسات ورّوادها من الصوفية، وأحسن إليهم واستشارهم في كثير من الأمور ويجل علماءهم وجلس إليهم

---

(1) خانقاوات الصوفية في مصر في العصرين الأيوبي والمملوكي (22/1).
(2) المصدر نفسه (22/1).
(3) خانقاوات الصوفية في مصر (23/1).
(4) المصدر نفسه (23/1، 24).

واستمع إلى نصحهم، ووقفوا معه في حروبه ضد الصليبيين في مواقع كثيرة [1]، فقد نشأ صلاح الدين وترعرع مع أبيه نجم الدين أيوب الذي كان خيراً، حسن السيرة، كثير الإحسان إلى الفقراء والصوفية والمجالسة لهم [2]، قال ابن كثير: كان شجاعاً، كثير الصلاة، وله خانقاه بالديار المصرية، وله بدمشق خانقاه[3].

وقد رأى ابن خلكان في بعلبك خانقاه للصوفية، يُقال لها النجمية، وهي منسوبة إليه، ومدحه بأنه كان كثير الصلاح [4]. كان كثير الصلاح [5]، إلا أن التأثير الكبير في أخلاق وشخصية صلاح الدين، جاء من سيّده نور الدين، الذي تعلّم منه طرائق الخير، ومحبة أهل الله، والاجتهاد في أمور الجهاد، وقد سار على الدرب نفسه الذي سلكه سلفه، فقبل أن يشرع بتخليص البلاد من براثن الصليبيين بقي اثنتي عشرة سنة (570 - 582هـ) يعمل من أجل تحقيق الوحدة، وإعداد قوّة الإسلام المادية الروحية، فزاد من إنشاء الرُّبَط والخوانق والزوايا، وجعل منها مدارس عسكرية وتربوية، قال الصفدي: وأربى على نور الدين في جميع ذلك، وأردف كلامه هذا شعراً:

أحيا الذي قد سنّ نور الدين ::: وزاد ما أمكن من تحسين[6]

ويُعَدُّ صلاح الدين أوّل من أدخل مثل هذه المواضع على مصر. قال القلقشندي: وأما الخوانق والربط، فممّا لم يُعهد بالديار المصرية، قبل الدولة الأيوبية، وكان المبتكر لها صلاح الدين بن أيوب [7]، ووافقه في ذلك المقريزي والسيوطي وغيرهما.

إن صلاح الدين أوّل من أنشأ خانقاه للصوفية بمصر، ووقّف عليها أوقافاً كثيرة، وكان سكّانها يُعرفون بالعلم والصلاح، ووُليّ مشيختها الأكابر، وممن تُرجى بركتهم مع ما كان لهم من الوزارة، والإمارة، وتدبير الدولة، وقيادة الجيوش، وتقدمة العساكر [8]، وقد استرعت هذه الأمور الرّحالة الأندلسي ابن جبير أثناء رحلته إلى المشرق فقال: ومن مناقب هذا البلد - مصر - ومفاخره العائدة في الحقيقة إلى سُلطانه المدارس والمحارس الموضوعية لأهل الطلب والتعبد.. وهذا السلطان الذي سنّ هذه السنن

(1) صلاح الدين والصليبيون، أحمد الشامي ص 81.
(2) الكامل في التاريخ نقلاً عن البطولة والفداء عند الصوفية ص 103.
(3) البداية والنهاية نقلاً عن البطولة والفداء ص 103.
(4) وفيات الأعيان (257/1).
(5) البطولة والفداء عند الصوفية ص 104.
(6) المصدر نفسه ص 104.
(7) صبح الأعشى (417/3).
(8) الخطط (415/2) البطولة والفداء ص 104.

المحمودة هو صلاح الدين، هو صلاح الدين المظفر وَصَل الله صلاحه وتوفيقه[1]. وكان - رحمه الله - أينما حلّ ونزل يبني المدارس الشرعية والخانقاوات، جنباً إلى جنب، فخلال فتح صلاح الدين القدس سنة (583هـ) أمر المسلمين بالمحافظة على كنيسة القيامة، وبنى بالقرب منها مدرسة للفقهاء الشافعية ورباطاً للصلحاء الصوفية، ووقف عليها وقوفاً، وأسدى بذلك على الطائفتين معروفاً [2]. وفي فتحه لعكّا، وقف نصف دار "الإستبار" رباطاً للصوفية، ونصفها مدرسة للفقهاء [3] ولا نجد غرابة من صلاح الدين في فعل مثل هذه الأشياء، لا سيما إذا علمنا أنّ الفريقين قد رافقوه في معاركه وفتوحاته ويبرز المؤرخون لنا هذا الحضور، وخاصّة فتح القدس، قال ابن خلكان: وكان فتحه عظيماً، شهده من أهل العلم خلق، ومن أرباب الخرق والزهد عالم[4]. ويُعزّز هذا الكلام، قول ابن الوردي في تاريخه: وشهد فتحه كثير من أرباب الخرق والزهد والعلماء في مصر والشام، بحيث لم يتخلّف منهم أحد [5]، وقد كان صلاح الدين يصحب معه علماء الصوفية لأخذ الرأي والمشورة، فضلاً عن أنّ وجودهم يُعتبر حافزاً قوياً للمريدين على القتال ببسالة وشجاعة [6] نادرة، وقد كانت شخصية صلاح الدين محببة لأهل التصوف، فقد سلك طريق الزهد، كما أنه لم يحفظ ما تجب عليه الزكاة ولم يُخلّف في خزانته إلا سبعاً وأربعين درهماً ناصرية وجراماً واحداً ذهباً، ولم يخُلفّ مُلكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً، ولا شيئاً من أنواع الأملاك، وقِنع من الدنيا في ظلّ خيمة تهبّ بها الرياح ميمنة وميسرة [7]، وكان صلاح الدين يستوي عنده الذهب والمدر - الطين - فقد قال ابن شداد: وسمعت في معرض حديث جرى يمُكن أن يكون في الناس من ينظر إلى المال كما ينظر إلى التراب فكأنه أراد بذلك نفسه [8]، والروايات كثيرة تؤكّد زهد صلاح الدين وتقشُّفه في مأكله وملبسه بينما يُغدق كرمه على الفقهاء والصوفية، ويوقف القُرى بما تملك من موارد وأرباح خدمة للزوايا ودور الفقراء [9]، وبنى صلاح الدين الخانات في الأماكن المنقطعة، البعيدة عن العمران، وفي الطرق الموصلة بين المدن،

(1) رحلة ابن جبير ص 46 البطولة والفداء ص 105.
(2) الفتح القسي والفتح القدسي ص 145.
(3) وفيات الأعيان (179/7).
(4) تتمة المختصر في أخبار البشر (147/2).
(5) البطولة والفداء عند الصوفية ص 106.
(6) النوادر السلطانية ص 6، 16.
(7) البطولة الفداء ص 107.
(8) تاريخ الأيوبيين ص 215.
(9) البطولة والفداء ص 108.

وذلك لخدمة أبناء السبيل والمسافرين، وقد شاهد ابن جبير الخان الذي بناه صلاح الدين في الطريق بين حمص ودمشق، وكان يسمى بـ "خان السلطان، " كذلك بنى الأمير بهاء الدين قراقوش خان السبيل [1].

وقد اهتم صلاح الدين بجذب العلماء وكذلك بجذب الصوفية فأنشأ لهم أول "خانقاه" للصوفية في مصر وجعلها "برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشاسعة" ووقف عليهم أوقافاً جليلة وولى عليهم شيخاً يدبر أمورهم عرف: بشيخ الشيوخ، ويذكر المقريزي: أن سكانها من الصوفية كانوا معروفين بالعلم والصلاح، وأن عدد من كان بها بلغ الثلاثمائة وقد رتب لهم السلطان الخبز والحلوى في كل يوم، وأربعين درهماً في العام ثمن كسوة، وبنى لهم حماماً بجوارهم، ومن أراد منهم السفر، أعطي نفقة تعينه على بلوغ غايته[2]، وهذه العناية بأمور الصوفية، كانت تستهدف أهدافاً منها ما هو متعلق بحركة الإحياء السني، فعلى الرغم من أن التصوف المعتدل كان اتجاهاً له احترامه من قبل الحكام وعامة الناس في ذلك العصر، إلا أن الاهتمام به على هذا النحو في مصر بالذات كان عملاً مقصوداً، ويهدف إلى تحقيق غاية معينة، ولعل السر في هذا هو أن الفاطميين في مصر قد عجزت أساليبهم المتعددة - في الدعوة إلى مذهبهم - عن أن تتسلل إلى عقائد معظم المصريين، ولكنها بسهولة أثرت في عواطفهم، فمظاهر الحزن والبكاء على الحسين، والاحتفال بموالد أهل البيت، واحتفال الفاطميين بهذه الاحتفالات وغيرها.. كل ذلك تأثيره في عواطف المصريين، وما تزال بقية من آثاره موجودة إلى اليوم، وإذا كان صلاح الدين حاول جذب علماء السنة إلى مصر من كل مكان، ليشاركوا بعلومهم وفكرهم في حركة الإحياء السني، فإن هناك جانباً هاماً كان لابد من العمل على إشباعه وتحويله من الوجهة التي اتجه بها الفاطميون إلى وجهة أخرى هذا الجانب هو الجانب العاطفي في الناس، والذي سيطر عليه الفاطميون بسهولة [3] وكان التصوف السني، وأهله من الفئات القادرة على إشباع هذا الجانب يومها بأخلاقهم السهلة السمحة، وزهدهم في متاع الدنيا، وقدرتهم على مخاطبة الناس عن طريق مجالس الوعظ والذكر وغير ذلك[4]، وقد استطاع صلاح الدين ونور الدين من قبله الاستفادة من جموع المتصوفة السنيين في حركة الإحياء السني والتصدي للتشيع،

(1) المواعظ والاعتبار (415/2، 416).
(2) التاريخ السياسي والفكري ص 240.
(3) المصدر نفسه.
(4) التاريخ السياسي والفكري ص 240.

والغزو الصليبي.

ساساً: الإصلاح الاجتماعي:

كانت الحياة الاجتماعية في عهد صلاح الدين تتسم بطابع الجدية ومناهضة الفرنج، ومكافحة العدو.. وكانت بعيدة كل البعد عن مظاهر الأبهة الفارغة الكاذبة، والعظمة الكاذبة، والبذخ المفرط، وكان رحمه الله يعطي لجنوده ورعيته القدوة الحسنة في اللباس العادي، والطعام الخشن، والمجالسة المتواضعة، يقول العماد الأصفهاني في وصف ملبسه ومخالطته: كان لا يلبس إلا ما يحل لبسه كالكتاب والقطن والصوف وكان من جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً لتواضعه [1].

وكان صلاح الدين رياضياً يحب الفروسية ولعب الكرة ويشجع عليها وكان يركب لمشاهدة مباريات الكرة والصولجان، بعد صلاة الظهر ومعه رجاله، حتى إذا ما وصل إلى الميدان نزل ليشاهد اللعب، ويستمر المتبارون في لعبهم حتى آذان العصر وكان يشترك في هذه المباريات مع خاصته وينطلق للعب مع بعض رفاقه وكان الصيد من أحب الهوايات عند الناس، فكانوا ينطلقون زرافات ووحدانا لصيد الطيور والأسماك والأوز، والأرانب، وكانوا يستخدمون الكلام في صيدهم. وهذه الظاهرة إن دلت على شيء فإنما تدل على التأهب الكامل والاستعداد التام لخوض المعارك في شجاعة فائقة، وبسالة منقطعة النظير، ومن الإصلاحات الكبيرة التي حققها صلاح الدين في المجتمع المسلم إبطاله مظاهر الخلاعة والمجون التي كانت شائعة في عهد الفاطميين ولاسيما في المواسم والأعياد كعيد النيروز، وإذا أردنا أن نعرف مبلغ هذه الخلاعة التي كانت متفشية في المجتمع المصري قبل عهد صلاح الدين فلنسمع إلى ما يقوله المقريزي في خططه: كانت المنكرات ظاهرة في عيد النيروز ومعه جمع كثير، ويتسلط على الناس في طلب رسم رَتَّبه على بيوت الأكابر، ويقنع بالميسور من الهبات، ويتجمع المؤنثون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤ بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي، وترتفع الأصوات، وتشرب الخمور في الطرقات، ويتراش الناس بالماء، وبالماء والخمر، وبالماء ممزوجاً بالقاذورات، فإن غلط مستور، وخرج من داره لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته، فإمّا فدى نفسه، وإما فضح [2] وأبطل صلاح الدين هذه المظاهر الفاسدة، والمنكرات السافرة ومكن من الحياة البريئة النظيفة، وأعاد لهم أخلاق الإسلام،

(1) صلاح الدين الأيوبي، عبدالله ناصح ص 178.
(2) صلاح الدين الأيوبي، علوان ص 179.

وآدابه السامية، ومن المظاهر الفاسدة التي أبطلها بدع المناسبات والمواسم، مثال ذلك بدع يوم عاشوراء، الذي كان يوم حزن وأسى عند الفاطميين، ففي هذا اليوم كان يكثر النحيب، ويرتفع البكاء، وتتعطل الأعمال، وتتوقف الأسواق، وترى الناس في هرج ومرج، كأنما فقد كل واحد منهم أعز الناس لديه، وأحبهم إليه فاستطاع أن يقضي على هذه العادات الذميمة والبدع [1] السيئة، وأما إنعامه على الرعية وتوزيعه العطاء على الناس، فحّدث عنه ولا حرج، فكان يعطي عطاء من لا يخشى الفاقة لأن نظرته إلى المال كمن ينظر إلى التراب.

وسبق أن ذكرنا أنه حين مات لم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجُراماً واحداً ذهباً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة ولا شيئاً من أنواع الأملاك، وإنما أنفق أموالاً طائلة على المشاريع الإصلاحية وإعداد الوسائل الحربية، وللمستحقين من أبناء الرعية.. حتى يتحقق للمجتمع تكافله الكامل، وللدولة قوتها المنيعة وللأفراد معيشتهم المثلى، وهذا ما مكن له هذا السلطان العادل والقائد البطل، ومن الأعمال الخالدة التي خلدت لصلاح الدين ذكره، إبطاله الكثير من الضرائب التي كانت تثقل كاهل المجتمع، وتقصّ مضاجع الناس، كالضرائب التي كان يفرضها أمير مكة على الحجاج، فقد كان صاحب مكة قد أمر بأن يؤدي الحجاج مكوس مكة مقدماً في جدة، فوقع على الحجاج الظلم فيها، فأبطل صلاح الدين كل هذا النظام، وعوض صاحب مكة عنها جملة، فحمل إليه في كل سنة ثمانية آلاف أردب قمحاً واشترط أن تفرق في أهل الحرمين، فرفع صلاح الدين بذلك متفرقاتها عن الناس، وأفاد بجملتها التي أداها من بيت المال أهل الحرمين [2].

ومما يدل على حسن طويته، وحرصه على سلامة المجتمع ووحدة الأمة، والتحذير من الظلم، وصيته لابنه الملك الظاهر الذي أسند له ولاية حلب، يقول في هذه الوصية كما رواها عنه قاضيه ابن شداد: أوصيك بتقوى الله فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الرعية، والنظر في أحوالهم فأنت أميني وأمين الله عليهم، وأوصيك بحفظ الأمراء وأرباب الدولة والأكابر، فما بلغت ما بلغت إلا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبُقي في أحد، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر

(1) المصدر نفسه ص 180.
(2) صلاح الدين، علوان ص 181.

إلا برضاهم، أما ما بينك وبين الله تعالى يغفره بتوبتك إليه فإنه كريم [1]، هذه أهم ما قام به صلاح الدين من إصلاح اجتماعي وتقويم أخلاقي، ليزهو المجتمع الإسلامي في عهده بأكرم الخصال وأحسن العادات، وأفضل الآداب [2].

سابعاً: الإصلاح العمراني:

من هذه الإصلاحات أنه اهتم بسور القاهرة، فلما كان قد تهدم أكثره وصار طريقاً لا يرد داخلاً ولا خارجاً، فقد سّورها، وانتدب للإشراف على عمارة السور "الطواشي بهاء الدين قراقوش". وقياس هذا السور من أوله إلى آخره يمتد حول المدن التي كونت مدينة القاهرة، في عهده وهي "مدينة الفسطاط" التي أنشأها عمرو بن العاص، ومدينة العسكر التي أنشأها صالح بن علي العباسي، ومدينة القاهرة التي أنشأها جوهر الصقلي والهدف من إقامة هذا السور حماية البلاد من كيد المعتدين بالإضافة إلى بناء السور بنى قلعة الجبل ليرد عن القاهرة غائلة الأعداء الغادرين غير أنه لم يستطع أن يكمل البناء جميعاً لانشغاله بالحروب في شتى الميادين، وتعد هذه القلعة من الآثار الحصينة في تاريخ مصر، وقد تناولتها يد التغيير في فترات عديدة من التاريخ، ومن القلاع التي بناها صلاح الدين قلعة سيناء بناها في شبه جزيرة سيناء على بعد 57كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من مدينة السويس كما بنى في الجهة الجنوبية من القلعة مسجدين متجاورين، وصهريجاً للمياه ليُرويَ العطاش، وعلى أحد بابي الصهريج كتب هذه الأسطر: بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد، خلد الله ملك مولانا الناصر صلاح الدنيا والدين، ملك الإسلام والمسلمين خليفة أمير المؤمنين، عمَّر هذا الصهريج الملك علي بن الناصر العادل المظفر، وكان فراغه شهر شعبان تسعين وخمسمائة هجرية [3].

ويقول الأستاذ "نعوم شقير" في كتابه تاريخ سينا والعرب: أنه مر بهذه القلعة وبالمسجدين، ورأى للقلعة بابا كبيراً في الجهة الشمالية الغربية منها، وفوق عتبة الدار حجر تاريخي عربي كبير مربع الشكل، نقش عليه بحروف ظاهرة اسم صلاح الدين: بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على محمد، خلد الله ملك مولانا الملك الناصر صلاح الدين، سلطان الإسلام، والمسلمين، يوسف العادل الناصر في جمادي الآخرة سنة 583هـ [4]، ولم يكن اهتمام صلاح الدين بإقامة التحصينات العسكرية هو كل شيء، فقد اهتم بتعمير جزيرة

---

(1) المصدر نفسه ص 181.
(2) المصدر نفسه ص 181.
(3) صلاح الدين الأيوبي ص 168.
(4) المصدر نفسه ص 169.

الروضة والجيزة، وبناء المقاييس وحفر الترع، كما اهتم ببناء المستشفيات - والمدارس، والخانقاوات - وكانت مدينة الجيزة والروضة في أيام صلاح الدين من أهم البلاد، ويقول ابن جبير في رحلته: إنه كان ينُصب في الجيزة كل يوم أحد سوق من الأسواق العظيمة، ويقطع بينها وبين مصر جزيرة فيها مساكن حسنة، وبيوت وأماكن للهو والنزهة، كما يوجد بينها وبين مصر خليج في النيل وبه مسجد جامع يخطب فيه، ويتصل بهذا الجامع المقياس الذي يعين زيادة النيل ونقصه، كما كان يوجد به أحجار ورخام.. وغيرها من ضروب الجمال والفن [1].

وبنى صلاح الدين السقى وعمّر الأسطول، وجعل للأسطول ديواناً مخصوصاً كان يسمى "ديوان الأسطول" سلمه لأخيه العادل، وقد كانت الإسكندرية ودمياط أهم الموانى البحرية في ديار مصر وكانت الفسطاط، وقوص، من أعظم الموانئ النيلية، وكان فيها إنشاء السفن الحربية التي ترابط بتلك الثغور، وتذهب للغزو في البحر لإعلاء كلمة الإسلام، وجَعْل رايتها خفاقة في العالمين، ونظر صلاح الدين إلى الإسكندرية إلى أهميتها الاستراتيجية في مقاومة المشروع الصليبي، فأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وبنى فيها مستشفى واهتم بالجسور والترع ليصلح حال المزارعين [2]، وقد ساهمت عوامل عديدة في التطور العمراني في عهد صلاح الدين منها؛ الدينية، والجغرافية، والسياسية والإدارية والاقتصادية والحربية، والاجتماعية والثقافية وقد قام الدكتور عدنان محمد فايز الحارثي بشرحها وتفصيلها في كتابه القيم: "عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين الأيوبي" [3].

وقد تحدث الدكتور عز الدين فّراج عن مميزات العمارة في الطراز الأيوبي فقال: وكانت أهم الظواهر المعمارية في العصر الأيوبي تلك التحصينات وما اشتملت عليه من أبراج وأبواب زودت بها أسوار مصر وقلعتها فالأبواب التي أنشأها صلاح الدين من النوع المنكسر الذي يسمى "الباشورة" وهي من الابتكارات المعمارية التي تزيد الحصون مناعة، إذا أن طريق الدخول فيها لا يخترق الجدار في خط مستقيم مثل الأنواع العادية، بل يضطر العدو أن يجتاز الباب بين برجين مزودين بفتحات يضرب منها بالسهام في جوانبه المكشوفة بغير واق أو درعً، كما أن هناك عنصراً معمارياً جديداً استعمله صلاح الدين في التحصينات، وهي شرفة حجرية بارزة عن حائط السور يطلق عليها

(1) المصدر نفسه ص 170.
(2) صلاح الدين، علوان ص 170.
(3) عمران القاهرة وخططها في عهد صلاح الدين ص 40 - 69.

اسم "السقاطة" ومزودة بفتحات رفيعة يرمى منها الجند سهامهم على العدو المهاجم من الأمام والجوانب، وقد أثبت الأستاذ كريزويل أن العنصر المعماري شرقي، كما أثبت أن نظام المدارس ذات الأيوانات المتقاطعة نظام نشأ وتطور في مصر، ولم تأت فكرته من الخارج وفي هذا العصر استمر ازدهار الزخارف الجصية وأشغال النجارة، كما ظهرت الكتابة النسخية، وسارت جنباً إلى جنب مع الكتابة الكوفية [1].

ثامناً: الإصلاح الإداري:

كان لظهور الدولة الأيوبية أثر كبير في إحداث تطورات إدارية رئيسية، تخالف تقاليد الجهاز الإداري الفاطمي، فيذكر القلقشندي، بأن الدولة الأيوبية عندما ورثت حكم الفاطميين خالفتها في كثير من ترتيب المملكة وغيرت غالب معالمها [2]، إذ أن قدوم الأيوبيين من مشرق العالم الإسلامي حمل معه روحاً جديدة في الإدارة كان مصدرها، النظم السلجوقية والزنكية، والعباسية ولقد تعددت أوجه التغيير التي أدخلوها في الإدارة، من أبرزها ظهور مناصب إدارية جديدة مثل منصب نائب السلطنة [3]، الذي يعكس ظهور ضرورة خروج السلطان من البلاد نتيجة الحروب الصليبية، فكانت الحاجة إلى وجود من ينوب السلطان أثناء غيابه [4]، وقد قسّم صلاح الدين دولته إلى أقاليم إدارية يتمتع كل منها بإمكاناته الخاصة وطابعه المميز، مثل مصر والشام وشمالي العراق والنوبة والمغرب واليمن والحجاز وقضى أكثر سنى حكمه في ميادين القتال، يمارس سياسة التخطيط والتنفيذ والإشراف، وتوجيه سياسة الدولة العليا، ثم يترك حرية التنفيذ في الأمور المحلية، في الاستعداد والدفاع، للولاة وفقاً لظروف وإمكانات كل إقليم، وهو ما يُعبَّر عنه مفهومنا الحديث "اللامركزية".

والحقيقة أن صلاح الدين لم يضع كافة السلطات في يده، على الرغم من أنه كان الحاكم الذي يدير دفة الحكومة المركزية، والراجح أنه أدرك أن توزيع السلطان يجعل من كل سلطة رقيبة على السلطة الأخرى، وموازنة لها في ممارسة اختصاصاتها كما أن تقسيم العمل بين عدة أشخاص أكفاء يحقّق عدة مزايا تتعلق بإجادة العمل وسرعة إنجازه[5]. وكانت القاهرة مركز حكومته، يقيم فيها نوابه، ووزراؤه، ومنها تصدر

(1) فضل المسلمين على الحضارة الأوروبية ص 228.
(2) صبح الأعشى (50/4) عمران القاهرة وخططها ص 224
(3) عمران القاهرة وخططها ص 224.
(4) الحركة الفكرية في مصر، عبداللطيف حمزة ص 48.
(5) تاريخ الأيوبيين ص 211.

أوامره إلى مختلف الأقاليم وكانت بلاد الشام محور حروبه وجهاده ضد الصليبيين [1].

وقد أسند مهام مناصب الدولة القيادية إلى أولاده وأقربائه وأخلص الناس إليه، وذلك لحماية نظامه ومنهجه في الحكم، والقيادة. وكان يعتمد في اختيارهم على العقل، حتى أنه عزل ابنه الملك الظاهر غازي عن إمارة حلب وأعطاها لأخيه العادل حينما استدعت مصلحة الدولة ذلك، وإذا ضَّم إمارة إسلامية يُبقى على حاكمها إذا وافقوا على الدخول في تبعيته، وتنفيذ سياسته التي تخدم أهدافه، بل الأهداف الإسلامية العامة، ومن يرفض يتركه يذهب حيث يشاء وكان يستعمل الأساليب السلمية للتفاهم معهم، وإذا خرج أحد الولاة على حكمه، يتغاضى عن أخطائه، ويستقبله ببشاشة، ويبالغ في إكرامه، مثلما فعل مع تقي الدين عمر حينما أراد الخروج على طاعته والتوجه إلى المغرب بسبب عزله عن ولاية مصر، وكان يراعي المصلحة العامة في تعيين وعزل الولاة؛ بالإضافة إلى الظروف السياسية والعسكرية للدولة، واتسمت سياسته بالعدل والتواضع، ولا يجرح شعور أحد، ولا يتعالى على أحد، ولا يتغرطس على أحد، ولم يكن الاستبداد من طبيعته [2].

- بهاء الدين قراقوش من رجال الإدارة الأيوبية :

كان بهاء الدين قراقوش عبداً رومياً، فرّ من إحدى قرى آسيا الوسطى وانتقل من بلد إلى بلد حتى وصل إلى بلاد الشام ثم التحق في خدمة أسد الدين شيركوه الذي توسم فيه النجّابة والشجاعة، فقَّربه من نفسه، وطفق يدربه على أعمال الفروسية وينمّي فيه المواهب الحربية وتسمّى في دمشق باسم بهاء الدين بن عبد الله الأسدي، ووصف بالأسدي نسبة إلى أسد الدين شيركوه الذي اشتراه وقام على تهذيبه وتعليمه، وكان سبباً في اعتناقه الإسلام، وما لبث بهاء الدين أن ارتقى في سلّم الجيش حتى وصل إلى مرتبة الإمارة وكان على رأس هذا الجيش قائده البطل أسد الدين شيركوه وهو الذي دخل مصر في أواخر الدولة الفاطمية، ثم انتهى الأمر على يد القائد صلاح الدين الأيوبي فيما بعد إلى إزالة هذه الدولة وإنهائها وإقامة الدولة الأيوبية مكانها. ومعنى قراقوش في اللغة التركية "العقاب" وهو الطائر الأسود المعروف، وبه سمي الإنسان لشهامته وشجاعته، واللفظ مكّون من كلمتين هما (قره) بمعنى أسود (قوش) بمعنى طائر أو نسر [3] وذكر ابن خلكان شيء من سيرته فقال: وقيل خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح

(1) المصدر نفسه ص 211.
(2) تاريخ الأيوبيين ص 212.
(3) حكم قراقوش ص 14.

الدين، فأعتقه، ولما استقّل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مّدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه واعتمد في تدبير أحوالها عليه، وكان رجلاً مسعود وصاحب همّة [1] عالية وترجم لـه ابن كثير في البداية والنهاية: كان الأمير بهاء الدين قراقوش عالماً فقيها، إلا أنه كرس نفسه للخدمة الإدارية والعسكرية [2]. وكانت حياة الأمير بهاء الدين قراقوش حافلة بالإنجازات العظيمة والبطولات والإخلاص للإسلام والمسلمين خلال ملازمته القائد صلاح الدين الأيوبي وكذلك بعد وفاته مما جعله محط كيد الحاسدين وأعداء الإسلام والمسلمين [3] ومن الأعمال التي أسندت إليه وقام بها خير قيام.

حراسة القصر الفاطمي:

حيث أسند إليه صلاح الدين أن يحرس القصر الفاطمي حتى لا يتصل من ذخائره شيء إلى خصوم أهل السنة فقام الأمير قراقوش بهذه المهمة خير قيام، وحرس القصر الفاطمي بعين لا تنام وعبثاً، حاول المتآمرون أن يحصلوا على المال اللازم لهم في الإنفاق على هذه المؤامرة فلم يَفلحوا وكان ذلك من العوامل التي ساعدت على إحباط المؤامرة [4]، وهي مؤامرة مؤتمن الخلافة وقد تم الحديث عنها. وكان قصر الدولة الفاطمية يضم من الذخائر، مالا عين رأت، كسوة فاخرة وعقوداً ثمينة وذخائر فخمة وجواهر نفيسة من ياقوت وزمرد ومصوغات ذهبية وأوان فضية وقلائد ودرراً، فقام الأمير قراقوش بحراسة هذه الذخائر على خير وجه إلى أن أظفر الله القائد صلاح الدين ومكنّ لـه في الأرض[5].

بناء قلعة الجبل:

لما رجع القائد صلاح الدين من الشام وشاهد ما أنجزه الأمير بهاء الدين من إنجازات خلال غيابه أظهر فيها الأمير براعة وخبرة هندسية واسعة، أمره أن يبني لـه قلعة تحمى مصر وترك لـه الخيار في مكانها وحجمها، وقد اختار الأمير بهاء الدين قطعة مرتفعة في جبل المقطّم، تشرف على القاهرة كلها، لتكون مكاناً للقلعة وباشر بعمارتها عام 572هـ وكانت عمارة القلعة، ضمن مجموعة تحصينات وتدابير عسكرية

(1) وفيات الأعيان نقلاً عن حكم قَراقُوش ص 15.
(2) البداية والنهاية نقلاً عن حكم قَراقُوش ص 15.
(3) حكم قَراقُوش ص 15.
(4) الفاشوش في أحكام قراقوش لابن مماتي، عبد اللطيف حمزة ص 34.
(5) حكم قراقوش ص 19.

اتخذها الأيوبيون لتأمين مدن مصر كالفسطاط والقاهرة، ولذا حفلت عمارتها في الخارج بالتحصينات والأبراج والبوابات المنيعة، فيما اشتملت منشآتها الداخلية على أبنية سلطانية رفيعة كانت محل إعجاب كل من زارها أو صفها من رحالة ومؤرخين وشيّد بناء القلعة على هضبة صخرية مرتفعة مما زاد في صلابتها ومنعتها [1]. ويقول ابن جبير في رحلته: وشاهدنا أيضاً بنيان القلعة وهو حصن يتصل بالقاهرة، حصن حصين المنعة يريد السلطان أن يتخذه موضع سكنه، ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة والمسخرون في هذا البناء والمتولون لجميع امتهاناته ومؤنته العظيمة كنشر الرخام ونحت الصخور والعظام وحفر الخندق المحدق بسور الحصن المذكور، وهو خندق ينقر بالمعاول نقراً في الصخر عجباً من العجائب الباقية الآثار... العلوج الأسارى من الروم عددهم لا يحصى كثرة ولا سبيل أن يمتهن في ذلك البنيان أحد سواهم [2].

بئر يوسف:

جعل الأمير بهاء الدين داخل القلعة بئراً عجيباً نقر في الصخر نقراً عميقاً جداً ولايزال البئر حتى يومنا هذا ويُدعى بئر "يوسف" وقد سميت هكذا نسبة إلى يوسف صلاح الدين[3] وقد ذكر الأستاذ علي باشا مبارك: والبئر المعروفة بالحلزون الموجودة بالقلعة هي من عمل قراقوش في أيام صلاح الدين، عملت لأجل وجود الماء في داخل القلعة بواسطتها إذا حصل لها حصار من عدو [4].

سور القاهرة والقلعة ومصر:

قام الأمير بهاء الدين بعد بنائه للقلعة في عام 567هـ بمد سور القاهرة الفاطمي الشمالي إلى الغرب حتى يلتقي بميناء المقسي على النيل وموضعه الآن مسجد الفتح الجديد بميدان رمسيس وهو نفس الموضع الذي كان يشغل مساحته جامع أولاد عنان قبل نقله، كما قام بمد سور من الشرق حتى يتصل بالسور الفاطمي الشمالي القديم الذي كان يقع شرقي حي الدرب الأحمر وقام بمد سور ثالث من جنوب القلعة حتى يتصل بباب القرافة إلى مدينة الفسطاط بمسافة قدرها خمسة كيلو مترات ونصف [5]. وقد كان هذا السور الذي بناه الأمير قراقوش ثالث الأسوار التي أحاطت بالقاهرة إلى عهده. أما الأول

---

(1) حُكم قَراقُوش ص 22.
(2) رحلة ابن جبير ص 52.
(3) حُكم قَراقُوش ص 24.
(4) المصدر نفسه ص 23 الخطط التوفيقية (69/1).
(5) حكم قراقوش ص 26.

فكان قد بناه القائد الرومي جوهر الصقلي. وأما الثاني فكان قد بناه الوزير لأمير الجيوش بدر الجمالي الفاطمي وكان هذان السوران الأولان قد بنيا من اللبن، أما الثالث فقد بناه الأمير قراقوش من الحجارة [1]. وامتد السور حول المدن الأربعة التي كونت مدينة القاهرة في عهده وهي: مدينة الفسطاط التي أنشأها الفاتح عمرو بن العاص رضي الله عنه، ومدينة العسكر التي أنشأها صالح بن علي العباسي، ومدينة القاهرة التي أنشأها جوهر الصقلي، ومدينة مصر، ويعتبر سور القاهرة العظيم من أعظم المنشآت الحربية التي بنيت في عصره، وكان المتصدي للإشراف على هذا الأعمال الأمير بهاء الدين قراقوش، فقد أظهر براعة وخبرة واسعة وهمّة عالية في بناء المنشآت الحربية فكان صلاح الدين كلما احتاج إلى عمارة أي منشأة حربية استعان على بنائها بالأمير بهاء الدين [2].

قناطر الجيزة وقلعة المقسى:

ومن العمارات والمنشآت الحربية التي شادها الأمير بهاء الدين قناطر الجيزة الواقعة تحت الجسر الموصل بين النيل والأهرام تجاه مدينة مصر [3]، وذكر أنه هدم الأهرام الصغيرة المبعثرة في الجيزة وأخذ أحجاراً لبناء القناطر [4]، ومنها قلعة المقسى وهي عبارة عن برج كبير بناه الأمير بهاء الدين في محل قنطرة الخلفاء بجوار الجامع في نهاية سور القاهرة عند باب البحر ومحلها اليوم المكان القائم عليه عمارتا الأوقاف وراتب باشا المجاورتان لجامع أولاد عنان في الجهة البحرية الشرقية بميدان باب الحديد [5].

توليته على عكا وترميم سورها:

في شهر المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة (585هـ) سار القائد صلاح الدين إلى عكا وأقام بها يصلح أحوالها، ورتب فيها الأمير بهاء الدين قراقوش وأمر بعمارتها وعمارة سورها [6]. وسيأتي الحديث بإذن الله عن عكا وما حدث بها.

أصل المثل القائد (حُكم قراقوش):

---

(1) الفاشوش في أحكام قراقوش ص 40.
(2) حكم قراقوش ص 27.
(3) المصدر نفسه ص 27.
(4) شذرات الذهب (331/4 - 332) حكم قراقوش ص 28.
(5) النجوم (39/4) حُكْم قراقوش ص 28.
(6) حكم قراقوش ص 29.

كان قراقوش من أروع القادة وأشجعهم، ولقد وقع مرّة في الأسر فافتدي بعشرة آلاف دينار وفرح به صلاح الدين فرحاً شديداً.. ويبدو أن سياسته في القاهرة كانت حكيمة وحازمة في إزالة الفاطميين وتضييق الخناق على بقاياهم، لذلك لم يجدوا سبيلاً لمحاربته إلا بالإشاعات وتشويه السمعة حيث وضعوا عنه كتاباً أسموه "الفاشوش في أحكام قراقوش" وهي الإشاعات التي يردها معاصرونا بغباء [1]، وذكر ابن خلكان أن الناس ينسبون للأمير بهاء الدين قراقوش "أحكاماً عجيبة في ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين، حتى أن الأسعد ابن مماتي له كتاب سمّاه "الفاشوش في أحكام قراقوش" وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه والظاهر أنها موضوعة، فإن صلاح الدين كان يعتمد في أحوال المملكة عليه، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه [2]. لقد كان كتاب الأسعد بن مماتي "الفاشوش في حكم قراقوش" هو أصل المثل الذي انتشر في كل الأمصار من تاريخ صدوره حتى تاريخنا المعاصر، وهو كتاب صغير الحجم تضمّن حكايات ونوادر ساخرة كتبت باللغة العامية، تنال من الأمير بهاء الدين قراقوش وتظهره على عكس مظهره الحقيقي، وتجعل منه شخصية فكاهية على نمط شخصية "جحا" في التراث الشعبي الفكاهي. وقد أراد مؤلفه ابن مماتي النيل من الأمير بهاء الدين قراقوش [3]، وقد ذهب ابن خلكان إلى أن كتاب " الفاشوش " كله موضوع وذلك لأن الأسعد بن مماتي كان مقرباً بل جزءًا، من البلاط الأيوبي فكيف يستنكر ويشنّع على النظام الذي هو جزء منه [4].

وفي حقيقة الأمر أن الدافع من كتابة هذا الكتاب الذي يمس الأمير بهاء الدين، وصلاح الدين والدولة الأيوبية برمتها، وراءه حملة دعائية وسياسية دبرت للنيل من السلطان صلاح الدين والدولة الأيوبية في أوج انتصاراتها، وأريد بنشره الإساءة لهذه الدولة التي كان لها دوراً بارزاً في القضاء على الدولة الفاطمية ودحر الصليبيين الغزاة، ومما يمكننا الجزم به أيضاً أنّ كتابة الكتاب بصيغة رسالة "نصيحة" إلى السلطان صلاح الدين وباللغة العامية يدل على دهاء كاتبها وسوء طويته وقد استطاع أن يحقق مآربه ويشهد على ذلك سرعة انتشار ما تضمنه الكتاب من أكاذيب وترددها على ألسنة الناس على أنها حقائق حتى أن السيوطي تأثر بها وقرأها لطلابه - كما ظهر في مخطوطة

---

(1) المصدر نفسه ص 41.
(2) المصدر نفسه ص 41.
(3) المصدر نفسه ص 41.
(4) حكم قراقوش ص 47.

باريس - مع اعترافه بأن الأمير بهاء الدين قراقوش كان رجلاً صالحاً غلب عليه الانقياد إلى الخير [1].

إن هدف كتاب "الفاشوش في حكم قراقوش"، وهو هز الثقة في الأمير بهاء الدين وهو من قادة صلاح الدين البارزين ومساعديه الأمناء الذين استعان بهم في الملمات، وبالتالي تأليب الناس وتحريضهم على الدولة الأيوبية "السُّنية" التي أنهت بمجيئها الحكم الفاطمي الشيعي وما الكتاب إلا وسيلة من وسائل الدعاية السياسية ضد المشروع السني.

* * * * *

(1) قراقوش ونوادره ص 69 حكم قرأقوش ص 53.